قصة قصيرة

تعال إلى حيث الذكرى!...

عبد الرحمن النابلسي

قسوة المدينة لا تُحتمل...

رغم مباهجها.. أضوائها.. بريقها المزيف.. لا تحتمل.. لا تحتمل...

كل شيء فيها ممنوع...

مرور الدراجات في الشوارع.. ممنوع...

دراجته ركنها في محل عمل عمله.. لا يستعملها إلا في الأزقة الضيقة...

صالة العرض التي قصدها يوم عطلته.. على بابها.. لوحة بخط أحمر لافت للنظر...

« ممنوع الدخول لهذا الفيلم لأقل من السادسة عشرة »...

ضحك عليهم.. لن يتم الخامسة عشرة قبل شهرين.. ومع ذلك.. سمحوا له.. لم يسأله أحد.. طوله يغش.. قامته أكبر من سنه.. (بزرته بلدية).. يسمعها كثيراً من جاراته الكهلات.. في ذهابه وايابه...

جلس في صالة العرض.. على يمينه لوحة.. وعلى يساره لوحتان...

« ممنوع التدخين وأكل البزر »...

ما اهتم بمنع التدخين.. لم يعتد عليه...

أما البزر.. فقد أخفى في جيب سترته نصف أوقية.. من النوع الأسود.. ينتظر اطفاء الأنوار.. ليتسلى بها خلسة...

طال جلوسه.. الجمهور يتدفق.. يتوزع على مقاعد الصالة المغلقة...

أحسّ بضيق...

تلفت وراءه.. شاهد في الصفوف الخلفية.. بعض المراهقات يتوثبن في مقاعدهن حركة.. وأحاديث نصف هامسة...

ما الفائدة؟!.. كأنهن يبعدن عنه أميالاً.. وأميالاً...

يشعر بذلك..

لا يعرفنه ولا يعرفهن.. لا يكلمنه.. ويتمنى لو يستطيع التكلم معهن...

يصفعهن بنظرات متحرشة.. ولا يعرنه أي التفات...

كم هن بعيدات عنه....

آه.. تنهد بقلب محروق...

أين فسحة الحقل.. من ضيق هذه الصالة؟

وأين آمنة.. تسلم عليه كلما مرت جانب الحقل.. على حمارها الأعرج؟!..

كم لحقها.. يمازحها.. يشدّها من ضفائرها.. كانت تضحك...

تضرب حمارها بعصاها.. وتضحك...

تهز ساقيها على جانبي بطنه.. تحثّه على الاسراع.. حا.. حاا!.. حاا!.. وتضحك...

ما زالت أصداء ضحكاتها... حاءاتها.. تغرد في أذنيه.. حا.. حا.. حا.. ما أحلاها...

وجميلة؟!... كانت في الثالثة عشرة.. وتفهم في الحب كبنت العشرين...

تعلّم منها الكثير.. عندما كان يلاحقها.. فتهرب منه معابثة.. تتغلغل بين سيقان الذرة الطويلة.. تختفي منه.. يفضحها لهاثها المتسارع.. صوت سعالها المصطنع.. يجدها.. يرتمي فوقها...

وعندما تريد أن توقف اندفاعه الأهوج.. تصيح في ذعر كاذب.. وهي تتملص من تحته.. « أبويا ورايا يا أسعد »...

تعلم منها الكثير.. هناك.. بين أعواد الذرة.. مع سحر تأوهاتها. مع لهيب أنفاسها.. مع تمنعها الممزوج بالرغبة...

آه.. أين أنت يا جميلة؟!...

أين أنت يا آمنة؟!....

★ ★ ★

أطفئت أنوار الصالة.. بدأ عرض المناظر...

لقطات لأماكن سياحية.. أطلال آثار.. خرائب قلاع..

تعليق صوتي رتيب.. يمجد الماضي.. لينسيه الحاضر...

تململ في مقعده...

بعد قليل...

أضاء مصباح دليل الصالة.. استقر على مقاعد صفه...

اتجهت نحوه واحدة من مجموعة رفيقات يتبعنها.. تصحبهن ضجة نسوية.. ناعمة.. أدخلت الأنس إلى نفسه...

ماجت الرغبة في صدره.. وضع ساعده على مسند المقعد المشترك.. دعا ربه أن تجاوره أحلاهن...

جلست.. لم يتبين ملامحها في الظلمة.. شعر بساعدها فوق ساعده المسنود لحظة واحدة.. ثم سحبته.. كأنما لسعتها عقرب...

انكمش على نفسه.. أحس بحبات ساخنة من العرق.. تنفر من مسام وجهه.. ركّز أنظاره على الشاشة...

انتهى العرض السياحي.. تبعه عرض صحي هادف.. من بولونيا.. بالرسوم المتحركة.. عن مضار التدخين...

شاب رياضي.. في تمام صحته.. يغريه أصدقاؤه باللفافة الأولى.. وعلى مدى الأيام.. تتداول أصابعه لفافات مشتراة.. يفقد الشهية.. يهزل.. يحتل السعال صدره.. يخسر مبارياته الرياضية.. يفصلونه عن عمله.. يرتمي أخيراً على سرير في مصح

حكومي.. بعد اصابته بالسرطان.. وينتهي العرض الكئيب المتشائم هذا.. بنعش يُحشر فيه...

في الأمر مبالغة.. قالها في نفسه.. جدّه كان يدخن.. وعاش فوق الثمانين...

وبدأت بعد ذلك.. تتتابع على الشاشة عروض أميركية مبهجة.. دعاية لشركات السجائر المتعددة...

« بول مول.. كينت.. ونستون.. مارلبورو... »..

في لقطات قصيرة ملونة.. يذوب المشاهد في أجوائها الحالمة.. ويذهل مع حركات مدخنيها الارستقراطية.. الخيالية...

تحيط الحسناوات بالمدخن.. يتقربن اليه.. يتمسحن به.. يغازلنه.. وهو يترفع عنهن.. يشمخ بسيجارته الاميركية المعلقة بين شفتيه...

وتجيش رغبة التدخين في صدر أسعد.. مع الموسيقى المصاحبة للدعاية.. مع ذلك الصوت الساحر.. العميق.. كأنه آت من السماء السابعة...

« إذا أردت أن تتمتع بلذات الحياة.. توج متعتك بسجائر ونستون.. ونستون هي الكمال بالمتعة... »..

ويتبعه صوت آخر.. أكثر اغراء....

« تعال إلى حيث النهكة.. تعال إلى مارلبورو... »...

يعيدها ويكررها.. حتى يغوص أسعد في حلم مع الصبايا الشقراوات.. يتخطرن على الشاشة.. حول مدمني السجائر الاميركية.. يشتهي لو كان بينهن...

ودون شعور.. وهو مستعد أن يقسم على ذلك.. مدّ أصابعه ببطء مرتجف.. يحاول بها تلمس أي جزء من جسد جارته...

كم هي بعيدة عنه...

إذن ليجرب أيضاً ساقه....

دفع قدمه المحشورة في حذاء عتيق.. مثقوب النعل.. باتجاه قدمها.. قليلاً.. قليلاً...

آه.. ما أبعد المسافة...

مضت ثوان عديدة.. حسبها ساعات.. مليئة بالرعشات الخائفة.. بالرغبات الثائرة...

وفي اللحظة التي لامست فيها رؤوس أصابعه فخذ جارته.. أحس بصيحة تثقب أذنه.. وصفعة أخرجت الشرر من عينيه.. فأضاءت الصالة...

ولا يعرف بعدها ما جرى...

الضجة أحاطت به.. والصفعات انهالت عليه.. خبّأ وجهه بين الساعدين دفعته الأيدي خارج مقعده...

تلقفه دليل الصالة.. صفع قفاه عدة صفعات.. سلمه إلى شرطي...

وبدأت حفلة جديدة من التعنيف المر.. المليء بالمسبات والضرب والركل.. أمسك برسغه.. لوى ساعده...

- هات هويتك...

- ليست معي...

فتشه.. كاد يمزق جيوبه.. عثر على نصف الأوقية من البزر الأسود.. صادرها.. ومع صفعة اضافية...

- وأيضاً تخالف أوامر الحكومة!!.. ألا تعرف أن البزر ممنوع يا جحش؟!..

وبصوت مطأطأ النبرات...

- بلى أعرف.. وأعرف أن كل شيء ممنوع عندكم...

★ ★ ★

حضرت بعد قليل امرأة.. نصف كهلة.. سمرتها أقرب للسواد.. لطخت وجهها ببقع من المساحيق الملونة.. زادت من تنافر تقاطيعها.. يلوك لسانها الشتيمة تلو الشتيمة...

حاولت خلع فردة حذائها متهيئة للضرب.. وبالكعب العالي...

حالوا بينها وبينه.. مهدئين.. راجين...

بكى أسعد...

أحس ساعتها بالألم...

كل هذا الصفع والركل.. والشتم والذل.. من أجل هذه الشمطاء ؟!...

ترأف بعضهم به.. رجوا الشرطي.. أصرّ على سحبه للمخفر.. ثم رضي بعد تدلل.. واكتفى بطرده خارج الصالة.. وبرفسة أخيرة.. وصل الباب...

لم يصدق نفسه عندما أصبح في الشارع...

أسرع في الابتعاد.. موشح الوجه بالكدمات.. موجع الجسم...

★ ★ ★

آه.. ما أقسى المدينة!

تمنى لو تحمله رافعة.. من تلك الرافعات التي تقف قرب محل عمله في المنطقة الصناعية.. ترفعه.. وترميه فوق أحقر بيت في قريته...

ليته يستطيع أن يفرض رأيه على والده.. المستخدم في إدارة حصر التبغ والتنباك.. ليعودوا جميعاً.. مع أمه وأخوته إلى القرية وطيبة أهلها.. إلى الحقول وخضرتها.. إلى آمنة وضفائرها.. إلى جميلة ومداعباتها...

★ ★ ★

وانطلق في شوارع متفرقة...

لم يركب.. أراد الوصول مشياً إلى مأواه.. إلى الغرفة الوحيدة المستأجرة في الحي الشعبي.. في « الزفتية ».. والتي ينحشر فيها مع أفراد الأسرة.. ثمانية وهو تاسعهم...

لفّ ودار في الطرقات.. لعل آثار الضرب تخفّ.. ولعل طول المسافة.. ينسيه ما حصل...

مرّ في مفترق شارع بأعمى.. يحمل علب دخان أميركي مهرّبة.. ينادي في خوف هامس...

- .. ونستون.. مارلبورو.. ونستون.. مارلبورو.. »...

مرت في ذهن أسعد.. صورة مدخن ونستون.. وراء مقود سيارة أميركية فاخرة.. تتدلع على كتفه شقراء فاتنة.. ملأ

جالها الشاشة.. واحتلت مفاتنها أعصابه.. فوترتها.. وكان ما كان...

قرر أن يدخن.. ولتسقط تلك الصالة التي ملأت زدهاتها وجدرانها.. بلوحات.. «ممنوع التدخين».. والتي ذاق فيها المهانة...

مدّ أصابعه إلى جيب سرواله.. أخرج ليرتين...

ألقاها في كف الأعمى الممدودة...

أخذ علبة ونستون...

فتحها.. تناول منها لفافة.. وضعها بين شفتيه...

تذكّر.. لا يحمل ثقاباً.. أراد شراء علبة.. المحلات مقفلة...

فتش بعينيه عن مدخن.. يشعل له اللفافة...

سار طويلاً.. اقترب من الحي..

بدا له من بعيد بأضوائه الخافتة.. ببيوته الطينية.. بأكواخ الصفيح المزروعة كالبثور الطافحة فوق جلد المدينة...

وقف.. مر به كهل يدخن...

- معك (كبريتة) يا عم؟!...

تطلع هذا إليه.. يقيسه بنظراته.. أصغير على التدخين يا ترى؟!...

اقتنع.. أما قلنا من قبل.. طوله يغش... ويبدو أكبر من سنه؟!...

أخرج من جيبه قداحة غاز.. أشعلها...

أسرع أسعد بوضع اللفافة بين شفتيه...

انحنى على الشعلة.. سحب نفساً عميقاً...

احترق طرف اللفافة...

نزعها من بين شفتيه.. مع سعال حاد مفاجىء أصابه...

وقبل أن ينصرف الرجل...

- أنت جديد بالتدخين يا ابني!.. اسمع نصيحتي.. اتركها أحسن...

لم يردّ.. كان السعال شديداً عليه..

خاف أن يصل البيت قبل الانتهاء من تدخين اللفافة.. وخشي أن يمر أبوه المتسلط... أن يشاهده يدخن.. طريقه المعتاد من هنا...

ابتعد...

وقف جانب جدار بيت.. هدمته المحافظة منذ سنوات.. دون أن تسمح ببناء جديد مكانه.. جعلت من أرضه مجمع قمامة...

عضّ على السيجارة بشفتيه.. مقلداً ذاك المدخن الاميركي.. لا ينقصه لاستكمال المشهد.. إلا شقراء.. زرقاء العينين.. تُفتن به.. تجثو على أقدامه.. متلاشية...

وعلى الجدار البالي.. كلما مرت سيارة.. كشفت أنوارها عن خط عريض رديء.. مكتوب بدهان أسود رخيص...

«ملعون ابن ملعون.. كل من يبول في هذا المكان»...

وعلى مقربة من أكوام القمامة.. وأسفل الجدار.. تتزحلق القدم في مياه راكدة صفراء.. خلّفها وراءه كل متحدٍّ لهذا التحذير السخيف.. وما أكثرهم.

★ ★ ★

وقف يستند على الجدار.. لم يشعر بكل ما يحيط به من قذارة من روائح منفرة...

كانت الأحلام الشقراء تلفّ رأسه مع دخان «ونستون».. مع صدى الصوت الاميركي المغري...

«إذا أردت أن تتمتع بلذات الحياة.. توّج متعتك بسيجارة ونستون.. ونستون هي الكمال بالمتعة»...

وها هي المتعة كلها متوّجة بين اصبعي أسعد.. تخرج من بين شفتيه دخاناً أميركياً.. ينفثه في الهواء...

ويخدّر أذنيه صوتٌ آخر.. صوت أكثر اغراء.. ينادي بالحاح أمريكي...

«تعال إلى حيث النكهة.. تعال إلى حيث النهكة.. تعال إلى...»

وقدما أسعد تغوص.. وتغوص.. وتغوص في وحل المياه الصفراء الموبوءة.. الكريهة الرائحة...

دمشق

دار الآداب تقدم

سلاسل

دار الآداب للصغار

- غنّوا يا أطفال (١٠ اجزاء) للاستاذ سليمان العيسى
- شعراؤنا يقدّمون أنفسهم للاطفال (١٠ اجزاء) « « «
- سلسلة « صبّاح » للاستاذ زكريا تامر
- قصص مختلفة « « «
- تراثنا بعيون جديدة لمجموعة من الادباء
- اجمل قصص الاطفال في العالم

دار الآداب شارع الباشورة، بناية مركز الكتاب، ص.ب ٤١٢٣ تلفون ٣٢٤٨٣٢ - ٣٠٢٩٨٦